

مبادئ الفلاسفة الحديثة

— ٢ — الفلسفة والحياة

٣ — البيئة أو المحيط^١

في كل أدوار حياتنا نشعر بأننا محوطين بيئة أو محيط يلزمنا أن نقف عند حدود مخصوصة ، ، ويطلب منا بعض مسؤوليات معينة . وفي جوف هذه البيئة نولد ، وفيها نبقى من غير أن نستطيع أن نخلص من مؤثراتها طوال حياتنا ، حتى يزيمنا الموت من فوق الملعب الدنيوى . ولا جرم أننا في سبيل الحصول على « غاياتنا » لانهم بشيء اهتمامنا بالبيئة التى تضمنا . فلتها تساعدنا حيننا ، وتصعدنا عن أغراضنا حيننا آخر . نعم تربكنا آونة ، ولا تلبث أن تحبونا العون أخرى . وعلى الجملة ، فالبيئة لدى الواقع ، هى مجال العمل والنشاط . أما تأثيرنا العاكس فى البيئة ، ففيه كل مانعنى « بالحياة » .

والآن ننظر بايجاز فيما نعى « بالبيئة » والصور التى تتشكل فيها . وعلى رية فى أن هذا مما نحتاج اليه فى درس الفلسفة فى فروعها العليا . ولذا وجب على دارس الفلسفة أن يعينها ، وأن يعرف لها شأنها فيما هو مكب على درسه .

• * •

(١) البيئة الطبيعية

أول ما يطرأ على فكر الفرد ، وأول ما يستبين من أمر البيئة ، أنها طبيعية ، أى فيزيقية . أما ما يقصد بالبيئة الطبيعية أو الفيزيقية ، فنظام الاشياء والحوادث التى تتصل بها فى حياتنا من طريق الوجود المادى أو الجسمانى . ومن خصائص البيئة الطبيعية أنها باقية سرمدية ، وأن لا مهرب للانسان منها . إنها تغذينا وتعضد حياتنا ، كما نستخدمها فى الوصول الى كثير من أغراضنا ، ولا يندر أن تكون مصدراً يرمينا بالالام والمضرات ، وهى فوق هذا مؤثر لا يجب أن نغفل

عن أن نحسب في الحياة حسابها . وأخيراً يلوح لنا أن البيئة هي التي تحكم وجودنا وتقنينها .

أما البيئة الطبيعية أو الفيزيائية ، فيمكن أن نعد لها ثلاثة أوجه أو صور تظهر فيها . ولا جرم يكون من اللافت أن نعينها قبل أن نمضي في البحث . أما هذه الأوجه فتتخصر في المادة ، والزمان ، والمكان .

(أ) المادة

في البيئة الطبيعية كثير من الأشياء الخاصة أو « الموضوعات » لها كثير من الصفات المتباينة ، أو الخصائص المختلفة . ونحن انما نعلم الى تقسيم هذه الأشياء أو الموضوعات بطرق متفرقة متنافرة ، وعلى مجموعاتها المتنافرة . نصرف أسماء مختلفة ، فنقول جبل وشجرة وتفاحة وأرض ونظام شمسي وهكذا . غير أننا مع هذا نجتمع هذه الأشياء أو الموضوعات المختلفة من غير تمييز بينها في مجموع أو مرتبة واحدة ، من غير أن نعير اختلافاتها الفردية التفاتاً . وعلى ذلك المجموع الكبير الذي يشمل كل هذه الأشياء أو الموضوعات نصرف اسم « المادة » . « فالمادة » إذن هو الاصطلاح العام الذي نتخذه أساساً أو قاعدة لما نعني من البيئة الطبيعية (ب) الزمان

للأشياء التي تقع عليها في البيئة الطبيعية أوجه من الصلة غير الوجه المادي . فاتها تتشارك في الوجود ، بمعنى أن وجود بعضها يتبع وجود بعض ، فيتقدم بعضها على بعض أو يتأخر عنه . وهذه الصلات أو العلاقات ، سواء أ كانت تشاركاً أو تتابعاً في الوجود ، هي كل ما نقصد من اصطلاح « الزمان » . وعلى هذا يكون الزمان هو الاسم الذي نصرفه على ما ندرك من الصلات أو العلاقات الواقعة بين الأشياء أو الموضوعات ، على قدر ما هي متغيرة .

ولا يجب أن نفعل عن أن المادة والزمان والمكان لا ينفصل بعضها عن بعض انفصلاً نهائياً . على إنها مع هذا لا تستطيع أن ندرك لأول وهلة أن بعضها مستقل الوجود عن بعض . إنها ليست بأكثر من ثلاثة أوجه أو صور تتشكل فيها البيئة ما دمتا نقصد بالكلام البيئة الطبيعية ، وهي في وجود ما يتوقف وجود

بعضها على وجود بعض . وكذلك يجب أن نذكر دائماً أن الزمان لا ينحصر
جملة في النظام المادى . فالمسكرات تتغير ، والعضويات تبلغ حد الحرم ، كما أن
للنظمات الاجتماعية تاريخها . وعلى هذا يتضح أن الزمان هو من صنع بيئتنا ،
سواء أكانت طبيعية أو غير ذلك .

(ج) المكان

للأشياء المختلفة أو الموضوعات التى تتضمنها البيئة الطبيعية ، علاقات محدودة
تصل بين بعضها وبعض فى الحجم والتناسق والبعد والقرب والاتجاه فى حالتى
الحركة والسكون . ومجموع هذه العلاقات نعرفها باسم « المكان » فالمكان
على هذا اسم نصرفه على صور مختلفة من العلاقات التى تختص بها الأجزاء المتباينة
التي تكون « المادة » ، على قدر ما هي ذات مظاهر كمية ، أى ترجع إلى المقدار
المتيسر بثقل مادى .

(٢) البيئة الحيوية

من الأشياء التى تحتوى عليها البيئة مجموعة اختص بصفات أساسية معينة
ندعوها « الحياة » . فالأشياء أو الموضوعات « الحية » ندعوها « العضويات »
اصطلاحاً . أما صفاتها المميزة لها فتتجلى فى أرجاء من النشاط كالتناسل والتناسل
والنضج والانحلال . وهناك علاقة ما تسمى بين جيل وآخر من أجيال الصور
الحية . وهذه العلاقة ندعوها « الوراثة » . وهذه الصور العضوية تكون
« المحتوى » أو الأساس الذى تقوم عليه البيئة الحيوية . أما المجموعان أو المرتبتان
التي نقسم بهما البيئة الحيوية فهما الحيوان والنبات ، مع تقسيم الأولى إلى ذوات
فقر ولا فقارية ، والثنائية إلى ذوات الفلقة وذوات الفلقتين . أما التفريق بين الصنات
التي يختص بها كل من هذه الأقسام فيرجع فيه إلى كتب البيولوجيا التى تعنى بدراسة
القواعد ، أو علم التاريخ الطبيعى ، الذى يعنى بوصف العضويات وتحديد مراتبها .

(٣) البيئة الاجتماعية

فضلا عن البيئتين الطبيعية والحيوية ، نجد انفسنا محوطين ببيئة أخرى ندعوها البيئة الاجتماعية .

يؤلف الانسان في مجموع من الخلائق ، ولهذا المجموع عادات وتقاليد ومعتقدات وشرائع خاصة به ، وهذه الاشياء هي التي تحدد العلاقات القائمة بين الافراد التي تؤلف المجموع . وهذا المجموع نسميه « جماعة أو جمعية » . أما تقرير العادات والتقاليد والعقائد والشرائع ، التي تحدد العلاقات القائمة بين أفراد الجمعية ، فنُدعوها **النظمات الاجتماعية** .

والبيئة الاجتماعية ستة مظاهر سنتكلم في كل منها بإيجاز . أما هذه المظاهر فهي : التقليدي أو العادي ، والمدني أو الاقتصادي ، والادبي ، ومظهر الجمال ، والمظهر الديني ، والعلمي .

(١) المظهر التقليدي أو العادي

البيئة كنظام تقليدي ، في حقيقتها عبارة عن صور متخالطة من التقاليد والعادات نمت وتطورت بطريقة لا تنبؤية أو لا تأملية على مدى القرون والاجيال التي تكونت خلالها السلالات البشرية ، وهي تختلف وتتنابذ باختلاف الاجيال والامم . وكثير من هذه التقاليد والعادات لا نخرج اليوم عن أمها وراثتها انتقلت اليها باللقاح عن حالات الانسان الفطرية الاولى ، في حين أن بعضها قد نشأ على مدى المصور التي تكون خلالها التاريخ البشري .

وهذه التقاليد برمتها نتاج ضروري تقتضيه طبيعة الانسان الاجتماعية وفي استطاعتنا أن ندعوها البادئات الاجتماعية ، لانها تنشأ في الجماعات كاتماصل العادات في الفرد ، وتتميز خصائصها من طريق الميول الفطرية التي تنزع بالانسان إلى تكوين الخلق الاجتماعي .

واليك بعض أمثال من هذه التقاليد . فمنها الملبس والكلام ، واللعب والتسلية ونظمات الزواج والعلاقات الجنسية عامة ، وعلى الجملة كل ما يجري مجرى هذه الاشياء . وكذلك المعتقدات والميل إلى الاعتقاد وما يترتب عليه

من النتائج ، انما تلوح كأنها سابحة في الجو الاجتماعي متنقلة من عصر الى عصر في حين أنها ترسل بجذورها القوية الى أعماق أغوار الجمعية الانسانية . على مدى العصور التي تذهب فيها متطورة من حال الى حال . .

وجماع هذه العقائد والميول الاعتقادية تكون مانهوه « البيئة التقليدية » التي يولد كل منا مكتنفاً بآثارها العديدة ، بحيث يتعذر عليه أن يتخلص من المسؤوليات التي تلقىها على عاتقه ، أو الواجبات التي تلزمه القيام بها قسراً وجبراً « انها تصبح جزء من طبيعة كل فرد . وعادة غير متغيرة من العادات التي يألفها العقل ، أو مجموع ثابت من الميول الذهنية ، ومن طريقها تفسر كل التجارب الذاتية التي يعانها الانسان ، وعلى ما يدرك منها تكون أوجه المدح أو الذم » (١)

(ب) المظهر المدني أو الاقتصادي

اذا تركنا المظهر التقليدي ، وتأملنا في البيئة الاجتماعية ، وجدنا أنها تتطور في مظهرها الثاني الى نظام خضع لنواعد أو سنن تضعها الجمعية بمحض اختيارها ابتغاء الوصول الى الغايات العامة .

وفي هذا المظهر تتحدد حقوق الافراد ومصالحها لمنفعة الجمعية ، وكذلك تحدد مسؤولياته تجاه اخوانه في المجتمع على قواعد موضوعة . ومن هنا يلحق الفرد المبادئ الاولى في الحقوق والواجبات ، ليعرف ما يملك وما لا يملك ، وإلى أى حد تذهب حريته في استخدام « ما يملك » من الحقوق ليرضى رغباته الفردية ، وأية من منازع السلوك هو ممنوع عن أن يأتي بها .

ولا ريب في أن هذه النظمات تحدد الى درجة بعيدة منقلب الفرد في الاجتماع بأن تقيّد حريته في العمل وأوجه النفع الذاتي التي يمكن أن تسنح له فرصها . وهذه النظمات ولو أن طبيعتها سلبية ، فإنها ضرورية على وجه العموم

(ج) المظهر الادبي

البيئة الاجتماعية ، في مظهرها الثالث ، عبارة عن تواضع أدبي صرف . فالجمعية تصدر أحكاماً ما على صور بعضها من صور السلوك والانتهاج ، وتسم

١ - راجع جروت - في كتابه « أفلاطون وغيره من رفقاء سقراط » - ص ٢٤٩ مجلد ١

بعض هذه الصور بأنها « صواب » وبمضها بأنه « خطأ » . وتجزى لافراد الجمعية أن تأتى فعل ما هو « صواب » وأن تمتنع عن فعل ما هو « خطأ »

واتمد تحظر الجمعية على اقرارها أن تأتى فعل بعض من صور الخطأ بقوانين وشرائع ونظامات تضعها ، فى حين أنها تستنكر فعل البعض الآخر استنكاراً دليلاً الا كبر نفور الرأى العام . غير أن صور السلوك التى تحكم الجمعية على أنها « خطأ » تكون على الدوام مستنكرة وفى اتيانها تهمة الاستخفاف بالذوق العام . أما ماتقر الجمعية على أنه صواب ، فيشجع ويمدح . وفى تقدير السلوك تنحصر كل مايعنى بالمظهر الادبى فى الوسط الاجتماعى .

(د) مظهر الجمال

كذلك نجد أن حسن الجمال يكون مظهرًا آخر من مظاهر البيئة الاجتماعية فإن للجمعية الانسانية قدرة على أن تقيم الاشياء من ناحية القبح والجمال . وكما أن بعض صور السلوك قد تقيم بأنها خطأ أو صواب ، كذلك يقضى على أشياء معينة بالحكم بأنها جميلة أو قبيحة . وكما أن الجمعية تحظر فعل ما هو « خطأ » وتبيح فعل ما هو « صواب » وتشجع عليه ، كذلك هى ترغب فى الاشياء الجميلة وتنفّر من القبيحة . أما تقيم الجمال والقبح ، فله أثر كبير فى تكوين مظهر ذى شأن من مظاهر البيئة الاجتماعية . وهذا مايسمى بمظهر الجمال .

(هـ) المظهر الدينى

كذلك نجد أن البيئة الاجتماعية بيئة دينية فى طبيعتها وفى أهم مظاهرها . وليس من السهل أن نعين ماذا نعنى بالدين . كما أنه ليس من الضرورى فى هذا الوطن أن نضع للدين تعريفاً . بل يكفى أن نلاحظ أن الجمعية تقدر بعض ضروب من المعتقدات الخاصة فى وجود قوة أو قوات تعتبر فى نظرها مقدسة ، وتحاول أن تخلق لها نزعة من العبادة أو التقديس تستمدّها من هذه المعتقدات . وهذه المعتقدات وتلك النزعة التعبيرية ، تكون على الراجح العناصر الاساسية للمظهر الدينى من البيئة التى تكتنف الافراد .

(و) المظهر العلمى

سبق أن عرفنا المظهر التقليدى أو العادى بأنه مجموع معتقدات لا تنبئية أولاتأملية . وبجانب هذا المظهر يقوم مظهر آخر عقلى فى قوامه ، اقناعى فى أساسه ، تكون مع مضى الزمان من تأملات عقلية طويلة أكب عليها العقل البشرى فى هوادة وتريث . وهذه النواتج العملية ندعوها « علماً » أو « آثار علمية » فنفرق بهذا بينها وبين المعتقدات اللاتأملية التى تنشأ عن العادة والتقليد ، أما النظمات التى « تتبلور » فيها هذه النواتج العقلية ، فذلك ما نسميه « العلوم » . وهذا ما نسميه بالمظهر العلمى للبيئة الاجتماعية على أن هذا المظهر قد لعب الدور الأكبر فى حياة الإنسان على طول الدهور وكر العصور .

فيلوزوف